

بيتان... ودكان

كمال أحمد ضوا

الفهرس

بيتنا الأرضي 2

بيت عمي — الطابق الأول 6

الدكان 8

قامتا سنديان 9

في ذكرى الأب والعم 10

بيتنا الأرضي



بيتان من تراب وخشب داخل السور، ودكان لبيع وتفصيل الأحذية في سوق مصياف القديم. تقاسمنا الطعام والزاد والمصروف والحياة.

والدي الغالي أحمد، وخير الأسماء ما عبد وحمد (وحمل اسمه بكل فخر ولدي البكر، طاب ذكره)، كان الأكبر سنًا، رجل دين وعمل وعلم، ساع للتحصيل العلمي بكل طاقته، ولكن ضيق الحال والعوز والفقر وفقدانه لأم حنون وهو صغير حال من تحقيق حلمه، ولكنه كان قارئًا نهمًا ومحاسبًا ماهرًا ويقرأ القرآن غيبًا، كان يتولى تعليمنا في المراحل الابتدائية.

بدرية: وهي الأخت الكبرى وسميت على اسم ستي بدرة الجدي، وكانت كالبدر في ضيائه ويدها مبسوطة للغني والفقير. كانت ذكية ولماحة ولكنها امتهنت الخياطة على يد عمتي أم يوسف (الأم الثانية لنا) لتساهم في إعالة أسرة كبيرة، وفرحة العيد لا تكتمل إلا بيديها الحنونة ووسع صدرها حيث تخيط لنا الثياب الجديدة والجميلة بكل المناسبات.

بيتنا الأرضي — تتمة



خديجة: وهي الأخت الأصغر على اسم خديجة الكبرى، وأتت ضمن كيس لحمي شفاف يحاكي شفافية قلبها ووجهها الأبيض، وطيبة لا حدود لها. وكانت معلمتنا في البيت وأصبحت أول مدرسة علوم متميزة للمرحلة الثانوية في المنطقة والعائلة، واشترت لنا تلفازًا بأول راتب قبضته، ولكننا خسرناها باكرًا بسبب مرض ألم بها وفقدانها ترك ندبة لا تندمل.

حسن: وهو البكر من الشباب وسمي على اسم جدي حسن الذي سافر إلى أمريكا ولكنه مات فقيرًا غني النفس. وبسبب تمرده المبكر وطاقته الفياضة ترك الدراسة باكرًا والتحق بحركة فتح لفترة، وعمل ميكانيكيًا وكان ماهرًا في عمله، ولكن يده كانت مثقوبة لا يحتمل وجود المال فيها. عبر غمار البحار عاملًا على السفن، تنقل بين بلدان كثيرة وعاد بخفي حنين، واستقر في البلدة حاملًا أعباء الحياة مثقلًا بهمومها، وكان يتمنى لي أن أصبح قبطانًا أمخر عباب البحر مثله، ولكن للقدر كلمته الأخيرة.

محمد: الأخ الأصغر ولقبه أبو الضو، لضياء وجهه وصفاء قلبه، عشقه للطبيعة ليس له حدود، أينما تبحث عنه تجده في أحضانها. فقدناه باكرًا على إثر جلطة بعد أن عمل في معمل الزاوية بعد الثانوية.

بيتنا الأرضي — تتمة



فاطمة: الأخت الوسطى على اسم فاطمة الزهراء، وكانت كالزهرة المتفتحة مسقية بماء الصبر والصمت ورائحتها فواحة صيفًا شتاء، وكانت معلمة ابتدائي متميزة.

كمال: أنا العبد الفقير، والذي سماني عمي على اسم كمال ابن الشاعر والمحامي محمد كامل الصالح، ابن أخت الشاعر بدوي الجبل، والدته الشاعرة فتاة غسان مدفونة في القليعة جانب مغارة الحياة، وكان صديقًا لعمي والعائلة.

كنت مولعًا بالقراءة والموسيقى والرياضة ومحبًا للعمل ومجدًا في دراستي، وبعد الثانوية سجلت بحماه طب أسنان وأخذت غرفة في البغجاتي أنا وابن عمي عبد الرزاق حيث سجل طب بيطري، وذلك في عام ١٩٨٢. وفي المساء حصلت اشتباكات ولاحظت أكياس الرمل على سطح الكراج، فاستشعرت بخطر قادم، فأخذت أوراقي في صباح اليوم التالي إلى الشام وسجلت بكلية الصيدلة وتابعت دراستي، وكان حدسي أو دعاء الوالدة في مكانه، حيث أغلقت حماه بالكامل في شباط وعطلت الجامعات وشلت الحركة، وغار حي الكيالنية وأنشئ مكانه فندق أفاميا الشام على إثر قصف عشوائي طال المدينة.

بيتنا الأرضي — تتمة



عفراء: الصغيرة دلوعة البيت الشقراء تضج حيوية ونشاطًا، وسميت على اسم عفراء العذرية معشوقة عروة بن حزام الذي لم يتزوجها فمات على إثر ذلك، وكانت مدرسة علوم محبوبة للمرحلة الإعدادية.

معروف: آخر العنقود على اسم معروف بن جمر، فدائي إسماعيلي حارب مع الظاهر بيبرس ومشهور بكلته الحديدية وهي معلقة على باب أنطاكية بحلب.

ولدته أمي مع آخر رغيف خبز شهي وساخن بعد عودتها من التنور، وتفرش الخبز بأرض الدار ليبرد، وأتت الداية أم حسن عربية متأخرة وقطعت الحبل السري، وأرضعته أمي من ثديها المليء بالحليب بدفقة غامرة بالحب والحنان، وعمل بالصيدلية ورافقني من البداية، يده على يدي وقلبه علي بالإضافة لدوامه في معمل أحذية مصياف.

وكان والدي يوقظنا صباحًا أنا وأولاد عمي للصلاة وقراءة آيات من الذكر الحكيم، ومن لا يخطئ كانت له مكافأة من الدكان. فكانت الصلاة غذاء للروح والجسد.

وتاج بيتنا أم رؤوم عطوف تذهب للجبل قبل طلوع الضو لتأتي بحملة حطب، وتخبز الخبز بالتنور وتفرش الخبز بأرض الدار ليبرد، ونستيقظ على رائحة الخبز الساخن والفطور جاهز فيه ما لذ وطاب، مشبع بالحب والحنان.

بيت عمي — الطابق الأول



عمي عبد الله: وهو بمثابة والدي الثاني وهو الأصغر، توفيت أمه وكان عمره حوالي السنتين، وكان رجل عمل وعلم وسياسة، حاول التعلم ولكن ظروفه القاسية لم تسمح، فخاض غمار العمل باكرًا ليسد رمقه، فعمل بالمناطق الشرقية الشمالية في نقل الحنطة حيث هناك سلة سوريا الغذائية، والتقى برجال أنقياء وعصاميين وكانوا رفاقًا بالحزب الشيوعي، فانضم لهم على أمل أن ينال حقوقه وحقوق الناس، فحمل هذا العبء على كاهله، وأصبح عضو لجنة منطقية لحمص وحماه.

وسجن مرتين بأيام الوحدة بين سوريا ومصر ١٩٥٨، عذبوه وقلعوا أظافره على أن يقر ويعترف على رفاقه، ولكنه أبى واستكبر، وترك الحزب أوائل السبعينات ولكنه ظل صديقًا حتى آخر عمره، وتابعت معه النهايات وكنا سويًا أصدقاء، وغيابه ترك ندبة في روحي لا تندمل.

محمود: وهو البكر، سمي على اسم جدنا الأكبر محمود الذي أتى مع والده وأخوته الأربعة على إثر مشاجرة مع أحد الأعيان بالقدموس واستقر بمصياف. وكان مهندسًا زراعيًا عمل في المركز العربي لدراسات المناطق الجافة والأراضي القاحلة (أكساد)، التابع للجامعة العربية، وكان له كرسي ثابتة في الدكان، مساعد أساسي بالمحل.

بيت عمي — الطابق الأول — تتمة



خالد: على اسم خالد بكداش الأمين العام للحزب الشيوعي السوري، وكان شبيه جدي حسن بوسامته وطيبة قلبه، وهو مهندس زراعي عمل في وحدات مصياف.

أنور: من النور والضياء، فقدناه باكرًا على إثر جلطة وهو مدفون بالسعودية بسبب جائحة الكورونا، وكان مهندسًا كهربائيًا يضج حيوية ونشاطًا.

حازم: من الحزم والبأس، هادئ وقارئ جيد ومجد بدراسته، دكتور في مركز البحوث العلمية خريج فرنسا، وكانت أول شهادة دكتوراه بالعائلة.

عبد الكريم: ضابط مهندس يعمل في مطار دمشق، طيب القلب ونقي السريرة.

عبد الرحيم: خريج رياضيات ومقيم خارج سوريا.

فدوى: مقيمة في أستراليا ومتزوجة من آل العموري، من عائلات مصياف القديمة نزحت إلى لبنان.

سعاد: وهي الكبرى من البنات، خياطة تجلب السعادة والفرح للبيت.

الدكان



دكانة للأحذية، بيع جاهز وتفصيل، في منتصف سوق مصياف القديم، تجمع والدي وعمي، لكل طاولته وسندانه ومطرقته.

كانت ملاذنا الصيفي أثناء عطلة المدارس، ونعمل كخلية نحل ليل نهار. كانت منارة ثقافة وحوار وملتقى للفقير والوزير، حيث يرتادها المثقفون والعلماء ورجال دين وسياسة، وكانت محطة للقادمين والمغادرين ومستودع أمانات وجرائد وكتب متنوعة للمدينة والريف، وكأس الشاي حاضرة للصادي والغادي.

ومجلات العربي الكويتية وأسامة والجرائد نشتريها لكل بيت نسخة من مكتبة النهضة.

وخصص عمي بيتًا ثانيًا، له مدخل خارجي مكون من غرفة وخدمات كاملة لاستقبال الضيوف من أهل الريف أو محاضر في المركز الثقافي في حالة انقطاع السير، والطلاب الذين يأتون لتقديم فحص الشهادة الإعدادية والثانوية، وكنا نتسامر سوية كأننا عائلة واحدة.

وكان عمي يمتاز بنشاط وهمة غير محدودة، حيث يقوم كل صباح بكنس الدكان والشارع ويرشرش الماء فيبدو المحل نظيفًا، مع نظافة القلب واليد واللسان.

وفي الختام رثاء لأبي وعمي صاحبي البيتين.

قامتا سنديان



قامتا سنديان...
في زمن النسيان
الروح والسكينة من أبي
والشموخ والإباء من عمي
صبح مشرق تجلى
بعتمة الليل والدجى
من كروم العنب تقطرا
وبدنان الحب تجمعا
ومنهما شربنا المدام
وطاب الشهد والعسل
بيد يدق المسمار
ويد تحنو على الكتف
عين ترنو للشمس والمدى
وعين على القرآن والكتب
كانا لنا مجدًا وفخرًا
وكنا لهما عطاء ومددًا

في ذكرى الأب والعم



بمناسبة أربعينية عمي عبد الله

1934 — 2016

وقرب سنوية والدي أحمد

1931 — 2015

20 / 1 / 2025